« الرحيل إلى الزمن الأخضر»

(١)

بين انطفاءات الغيب وومضات الوعى كانت الذكريات تتأرجح بداخل جسدى المسجى على الأرض ، وتتقلب على أطياف عالم مبهم غريب ، فى البداية لم أعِ شيئاً مما حدث لىّ ، أو إلام ستصير نهايتى ، شئ ما يصطك بشدة بجوار أذنى على الأرض ، يحدث دوياً هائلاً ومرعباً فى مسمعي ، ينهرنى آمراً وهو يركلنى بقدمه كزبانية جحيم :

- هيا انهض .

أفتح عيني برهبة ، المكان مظلم موحش ، والرائحة كريهة خانقة لاتطاق ، أتلمس جانبى الأيسر وقد تخدر من طول رقادى عليه ، أتلفت حولى ذاهلاً : «أهذا هو القبر ؟!» ، أثار ذلك الهاجس فى نفسى أشياءً كثيرة كان علىّ أن أُفسرها بأى ثمن ، أتمتم :

- هل أنا حى أم ميت ؟!.

برودة المكان ، وصوت الفئران وهى تتواثب عند قدمي كلها أشياء كانت تؤكد لىّ أننى مازلت حياً ، مرة أخرى أعاند مع عيني

المعاندتين ، أفتحهما بعد عناء ، أحاول التركيز فى ذلك الشئ الهلامى الواقف أمامى ، أتساءل فى نفسى : « أهذه هى كوشينا عاملة النظافة فى فندق موسكوفا الجميل المطل على شاطئ البحر الأسود ؟ ، مستحيل ليست هى ، أهذه الغرفة السابحة فى الظلام تحمل الرقم ١٠١١؟ ، أين صوت البحر ورائحته الندية ونوارسه البيض التى كانت تصطدم خطأً بزجاج نافذتى» ، أفقت من شرودى على مقدمة الحذاء الضخم ينغرز بشدة فى بطنى ، بلسان عربى فيه عجمة كعجمة لسانى أسمعه يكرر الأمر :

- قلت لك انهض ، ألاتسمع ؟، هيا تعال معى .

يخرج صوتى مخالجاً تأوهاتى ، أنفاسى تذر ثرى الأرض فى وجهى:

- دعنى أفهم ماأنا فيه أولاً .

- سوف تستعيد ذاكرتك بعد قليل من الآن ، هيا .

صوت ما كان يدق ناقوس الخطر فى أعماقى ، عند منثنى النفق المظلم رحت أتقلب على جمر الذكريات وفى حلقى غصة ومرارة لاتوصف ، كانت جُل أحلامى لاتختلف عن أحلام فتاة ساقطة عرفت طريق الحقنة والكأس والسيجار المحشو بفتات من أوراق البانجو الخضراء ، صورة سيانا البلغارية الشقراء تمشى أمامى ، أكرر عليها كلماتى بصوت يختنق وذاكرة ترتعش :

- أوه فاتنتى سيانا لقد عشت حتى العقد الخامس من عمرى أطارد اللذة فى أوكارها كيلا يطاردنى مثل هذا السؤال السخيف مَنْ أنتَ ومِن أين تكون ؟.

ارتسمت على شفتيها ابتسامة ساخرة ، وهى تقدم لىّ فوهة الكأس التى تشرب منها :

- دعنى أخمن ذلك بنفسى أيها الساحر المشرقى القادم من الغرب .

جعلت من يدى حائلاً بين فوهة الكأس وبين شفتي ، أتطلع إليها من وراء الغشاوة التى تغطينى وكأنها نسيج العنكبوت بخيوط حمراء لانهائية :

- بل دعى فضولك لنفسك ، فمازالت عظام جسدى تؤلمنى من طول مطاردتى لك على جبال فارنا الخضراء ، ثم فى مياه البحر المنعشة .

تهيل على شفتيها ابتسامة ترابية لامعنى لها ، ثم تهب فجأة وقد تفجرت الحيوية فى وجهها الأسيل ، تجذبنى بأطراف أناملها الرقيقة من يدى نحو ساحة الرقص الغارقة فى الضوء اللازوردى:

- تعقلى ياصغيرتى .

تلتفت إلىّ ، تقاوم عنادى بعنادٍ أشد :

- هذه الموسيقى تحرك الصخر فمن أى شئ أنتَ ؟ .

تراقصت عيناي فوقها ، كانت تسبح فى بحر هادر من الأنوثة الطاغية ، ترتدى جونلة قصيرة سوداء ، وبلوزة حمراء شديدة اللمعة ، ومشقوقة عن فتنة توخز الأعين بسهام نارية ، إيقاع الموسيقى المتسارع كان يدنيها منى تارة حتى الالتصاق ، ثم يُنئيها بعيداً عنى تارة أخرى ، جذبتها برفق من مرفقها متسائلاً :

- تقولين من أى شئ أنا ، أحسبنا جميعاً قد انطلقنا من فوهة واحدة .

بالرغم من إيقاع الموسيقى الصاخبة الذى ازداد سرعة حتى بدا الحال وكأننا على حافة الجنون ؛ إلا أنها توقفت تماماً عن الرقص ، كانت تبدو أمام ناظري كمن نهستها حية ، تحدجنى بنظرة نارية وهى تقول بصوت عالٍ تغيرت نبرته الودودة فجأة :

- أعدك بصدق أيها الفيلسوف أننى سوف أشرب كثيراً حتى الثمالة كى أسمعك أو لاأسمعك على الإطلاق ، سيان الأمر عندى .

تحت القبة السوداء وقفت انتظرها خارج الملهى الليلى، السماء أشرعت إلى الأرض عيون مسايلها الدافقة ، الغيث يغطينى، أتراجع إلى الوراء حتى التَندة الملتفة دائرياً حول الملهى ، فوقها لافتة تخفت وتضئ بمختلف الألوان ، أقرأ بصوت مسموع :

- المطعم اليونانى ، أوه هاى زوربا ، هاى أوناسيس ، هاى أفروديت .

أرمى ببصرى فى اتجاه البحر المشاطئ للبلدة الجميلة ، أجده غارقاً فى غَلَس الظلام ، صوت هدير الأمواه المرتطمة بحافة الشاطئ فتلفظ زبداً ، تنعكس عليه الأضواء السارحة من بعيد ، ترسم صورة متلألئة فى عيني ، تنطفئ ، أنتبه إلى صوتها ينادينى من داخل السيارة اللادا الحمراء ، أخف إليها مسرعاً ، أمد يدى إلى مقبض الباب الأمامى كى أجلس بجوارها ، أتصلب فى مكانى، شئ حاد ذو فوهة مدببة ينغرز بشدة فى جانبى الأسفل تحت إبطى من ناحية القلب ، وعصابة كريهة راحت تلف وجهى كله ماعدا طاقتى أنفى ، منهما تسلل الشعاع الأسود الخانق ، أفقد الوعى !.

يدفعنى من مؤخرتى ببطن قدمه ، أنطرح مضرجاً فى دمائى على الأرض ، أسمع صوت الباب يصفق بحدة ، ثم حركة المفتاح فيه وهو يدور ليحكم إغلاقه ، أقاوم الألم والدهشة ، أهب مترنحاً وصارخاً :

- لماذا تعذبوننى هكذا ياأولاد الشياطين ؟.

أكاد أختنق ، يداى حول عنقى تطوقانه ، تنشبان فيه أظافر حادة ، أسحبهما بالدم متشنجاً حتى صدرى ، يأتينى عبر سدول الظلام صوتها الناعم ، تعاتبنى :

- كنت أحسبك أكثر صبراً .

- سيانا هو ذا مالى كله تحت أمرك .

تتحسس ذراعى بيد خبيرة ، يخرج صوتها مختلجاً بآهاتى :

- لقد جفت عروقك وأصبحت نافرة مثل أسلاك شائكة .

- أوه سيانا .

- حسناً سأتصرف .

تغرز شيئاً رفيعاً موجعاً فى وريدى ، أصرخ ، آخذ أنفاسى ، يزداد اختناقى :

- مابالهم يختطفون رجلاً كهلاً عاجزاً مثلى ؟!.

ارتمى كالمجنون على الباب الحديدى أدقه بكلتا يدي ، أجثو يائساً على ركبتي ، تخفت حدة دقاتى شيئاً فشيئاً مع همساتى :

- خذوا ثروتى كلها وأطلقونى .

يزداد غليان الدماء فى عروقى ، أنتفض ، صوتى يتحشرج، يخرج من حلقى كما يخرج الجمل الكبير من سم الخياط ، أكاد أغيب عن الوعى إلى الأبد ، أقاوم ، أستسلم ولكن ، فجأة أحس برأسى تستوى فوق راحة الظلام ، تهدهدنى كطفل وليد ، أنتبه بكل حواسى المُغيَّبة ، يد ما تمسح عن وجهى حبات العرق الكثيفة، تهش عنه الهوام والحشرات المنساحة فوقه ، حركتها الرتيبة دفعت نحوى شيئاً من ذرات الهواء النادرة ، أتنهد ، ذات اليد تربت على رأسى بحنان جارف ، أهمس مستغرباً :

- يا الله .

يُدفن رأسى فى صدر دافئ ، تأخذنى سِنة من النوم ، أستفيق على صوت حاد يدق على الباب :

- قردان عالباب [1] .

يتركنى برفق ، أسمع صوت خطواته تتجه نحو الباب ، ألمحه من ظهره عبر الضوء الخافت الذى تسلل من شق طولى مع صوت الباب وهو يفتح قليلاً ، كان عملاقاً فى ظهره انحناءة تجعله منكفئاً على نفسه ، كان يتحرك بصعوبة بالغة ، تناول شيئاً ما ، استدار إلى الداخل مع صوت انغلاق الباب ، وعودة الصورة الشبحية المعتمة تماماً ، أحس به يبحث عنى ، أناديه بالكاد بصوت يقطر بالإعياء والموت :

- إننى هنا أيها الشيخ الطيب .

مد يده بشئ ما صدمنى فى رأسى دون قصد منه ، أتناوله بيد وأتحسسه بالأخرى ، أظنها صُحَيفَة الطعام ، ترتعش يدى ، تسقط أرضاً ، أكاد أجن ، أتلمس بيدى وفمى الجائع سطح الأرض الموحل ، أمسك شيئاً مستديراً كالكرة ، أمسحها ، أقذف بها فى فمى منه ، أبصق فى وجه الأرض ساباً لاعناً ، أسمع صوت ضحكة وقورة خافتة تنبعث من ناحية ما فى الغرفة التى أجهل كنهها تماماً !.

صر الباب صريراً مزعجاً وكأنه لم يفتح منذ زمن سحيق، ألمح الشبح العملاق واقفاً بين دفتى الباب ، من الخط الرقيق الخارجى المضئ حول جسده المعتم عرفت أنه الشيطان المسئول عن عذابى اليومى ، بل اللحظى ! ، لايمكن أن يكون أبداً من مملكة البشر ، هببت فيه صارخاً ومتناسياً أوجاعى وماآلت إليه حالى من ضعف وهزال :

- لماذا تحتجزنى السلطات البلغارية هنا ، سوف تحتج دولتى بشدة على هذا التصرف الأحمق ، أو أن تكونوا المافيا فهذا شئ آخ.....

قبل أن أنطق بحرف آخر بصق فى وجهى ، طبق صفحة يده على صفحة وجهى ، أسقط على الأرض متناثراً ككأس زجاجى تهشم للتو، الدلو المعدنى الذى نقضى فيه حاجتنا يتلقى اصطدام رأسى بحافته المسنونة ، يدمينى ، ينقلب أرضاً ، يتدحرج مع صراخى المتواصل ، يصطدم بأشياء أخرى وفئران فرت مذعورة، تسحقنى الأصوات الرهيبة يرددها الصدى مع رائحة أنتن منها لم أشم فى حياتى !.

صرخ السجان فى بوحشية غير مسبوقة :

- هيا انهض يابن الـ.....

يولى وجهه شطر الناحية الأخرى للمكان ، أعرف ذلك من تلاعب الضوء الخافت القادم من العمق على تعاريج جانب وجهه، يطلق صرخة غليظة حقود :

- وأنت أيضاً أيها الكلب الحقير ، هيا تعالا معى .

يدفعه أمامى براحة يده من الخلف ، ثم يدفعنى فى أثره بذات الهمجية ، نكاد نسقط معاً ، نبدو كقطيع من البهائم تسوقنا الأرجل والشتائم البشعة .

أبحث عن عينى ، أستعيض عنهما بالأثر ، أُضيق الخطى بين قدمي حتى لاأسقط مرة أخرى ، مكرهاً أُضطر إلى إفساح ما

بينهما ، أتعثر فى الوهم ، أتصور أن الشيطان يفغر فاه تحت كل خطوة أخطوها ليبتلعنى ، أصرخ فى سريرتى : « إلى متى سأظل حبيساً لك أيها الزمن الأسود الغارق فى الدماء ؟!» .

يسمعنى دون أن أنبس بشئ ، يمد راحة يده إلىّ :

- هذه اليد الغليظة سوف تصافح وجهك كثيراً أيها الشيطان .

أتلقاها بصرخة رهيبة ، كلماته تحفر أخدوداً عميقاً فى نفسى، أهمس ساخراً من نفسى : « البحار العظيم فقد نجمه القطبى فى بحر طامٍ لاشطآن له».

صوته الأجش يسقط مرعباً فى مسمعى رغم شرودى إلا أننى انتبهت :

- إنتظرانى هنا ريثما آمركما بالدخول .

امتثلنا صاغرين لأمره أمام باب كبير، من فوق كتفه المرتفع ألمح خيوطاً من الضوء تتسلل من بين الشقوق الطولية ومن تحت عقب الباب ، تقدم نحو الباب ثم طرقه بأدب جم ، شد قامته حتى آخرها وهو يفتح الباب داخلاً لمسافة نصف متر :

- ها قد أحضرتهما ياسيدى .

صـوت جهـورى قـرع مسـامعنا ، أحـس بقلبـى الهَيـوب ينتفـض بشـدة مـع تقلصـات أمعائـى :

- أدخلهما أيها العريف مائير .

يلتفت نحونا ، يهتف بنا صارخاً فى وجهينا :

- تقدما .

أتقـدم مرتعشـاً وكأن فـى قدمـي الأغـلال ، يطعننـى بلسـانه الحـاد وهـو يشـدنى بيـده مـن تلابيبـى :

- اسرع بدون تلكؤ يابن الزانية .

تفتـق كلماتـه غشـاء القدسـية ، دِثَـار أمـى ، أسـحقه بنظـرة غضـب لاتوصـف ، أكاد أرد لـه الإهانـة بقبضتـى المتحفـزة ، تمنعنـى حلقـة الضـوء الباهـرة التـى سـقطت علـى عينـي فجـأة ، أصـرخ مـن الألـم ، أُطوق وجهـى بذراعـي ، ذات الصـوت الجهورى أمرنـى بحـدة مقيتـة قائـلاً :

- ارفع ذراعيك عن وجهك حتى أعرف من أنت .

لـم ألـبِ مطلبـه فـى التـو ، انتظـرت هنيهـة ثـم رحـت أسـفر عـن وجهـى شـيئاً فشـيئاً ، جعلـت أفـارق عالـم الظـلام القاتـل فـى تـأن شـديد ، عينـاي تبـدوان للناظريـن كعينـي حيـوان هلامـى غريـب

الهيئة ، أسحبهما متراجعاً وراء جفنين مسبلين اتقاءً لذلك الضوء الساطع بشدة كشمس الظهيرة الحارقة ، أنطق بصعوبة وعصبية:

- ماذا فعلت حتى يقبض علىّ وأهان هكذا أليس.....

تقاطعنى يد مائير الغليظة ، أصرخ متأوهاً ، أشعر بقفاى يشع ناراً من قوة الصفعة التى تلقيتها ، الصوت الجهورى القابع خارج دائرة الضوء ينفث فى مسمعي ضحكة شماتة سخيفة :

- دعنا نتعرف إليه أولاً أيها العريف مائير .

- أمرك سيدى .

أحس به يتراجع إلى الوراء فى خضوع جم، أفتح شقاً صغيراً فى كلتا عيني ، من بين أهدابى المشتعلة رحت أحدق فى مصدر ذلك الشئ السابح وراء غلالة كثيفة من الدخان ، أنطق وقد غلفت كلماتى الدهشة :

- ستتعرفون إلىَّ.....؟!!.

- نعم نود أن نعرف مَنْ أنتَ وماذا تريد منا ، ولماذا أحضرك رجالنا إلى هنا .

لم أره وهو يقلب الصفحات فى ملف أمامه ، وانما سمعت صوت خشخشة الورق وهو يقلب على سطح المكتب الذى يجلس

وراءه ، ثم صوته وهو يأتى من عمق الصورة الشبحية المرتسمة أمام عيني الكسيرتين :

– أأنتَ كاتب ؟.

– كنت .

– والآن ؟!.

– لقد تجمدت عند أسوار التجربة الفاشلة ، هه حتى أننى لا أعرف فى أى زمن أو مكان نحن !.

– هه ، كلكم تكتبون بمداد من النار ، ثم لايكتوى به غيركم فى النهاية .

ضحك ضحكة خبيثة ثم قال آمراً :

- خذه إلى الزنزانة حتى نَبت فى أمره .

بسرعة البرق الخاطف سحبتنى يد مائير الفولاذية من قفاى قبل أن أنطق بأية كلمة من تلك الكلمات الكثيرة التى كانت تدور فى خلدى ، أسمع صوت ارتطام ثقيل يأتينى ممزوجاً بصوت غاضب جهير يقول :

- أماأنت فجميعنا يعرفك أيها الجرو القذر ، لقد جعلتنا أضحوكة أمام العالم كله .

يلاحقنى صوته الصارخ المتألم حتى نهاية الدهليز الذى تصطف على جانبيه الزنازين الحديدية ، يفزع فى كوامن نفسى هواجس الفضول ، أنسى ألمى ، أعبر أسوار عالمى البغيض ، أتساءل فى رعب وصراخ مدو :

- ماذا جنت يداك أيها الشيخ الطيب ؟!.

تجيبنى قبضة قاتلة ، وإغماءة طويلة تبدو أبدية .

●●●

(٢)

كانت كل الأشياء من حولى طلاسم يصعب توصيفها فى صورة واضحة المعالم أو حتى مشوشة ، أعاود الارتكاز قائماً على ومضة كانت تبرق فى حلكة الظلام فجأة ثم تتلاشى ، أسقط مرة أخرى فى جُب عميق لا قرار له من الأوهام السود ، والخواطر العجيبة :« أهذا هو قاع الزمن ؟!» .

الباب يفتح فجأة ، العريف مائير يدفع به أرضاً ، يغلق الباب بصفاقة متناهية وهو يسب ويلعن كعادته ، أنهض متحاملاً على العدم ، أُفتش عن تلك الومضة التى ترق لحالى بين انتفاضة عين ورقصة قلب جريح ، أتعثر فيه ، يتأوه ، أتمتم فى سرى معتذراً ، أحمل رأسه بين ذراعي ، السائل اللزج يلطخ وجهه ، وغرغرة الزبد فوق شفتيه تسيلان على حبل واحد حتى رقبته، ثم على ذراعي حتى طرف الزَّنْد ، يقطران نقطاً على قدمي ، يتيبسان ، لا أقوى على الحركة ، أضمه إلى صدرى ، أدخل معه فى حوار صامت، يقشعر بدنى ، يخفق قلبى وَجَداً وحناناً ، أتلمس انساناً يرزح تحت الجلد ، روحاً تقاوم الموت ، أمد يدى إليه فى أعماقى ، كان غارقاً حتى أنفه ، أباعد بينه وبين ذراعيها الأزهرين المتشبثتين بصدره المشعر العريان :

– أوه سيانا يالمنسحقى القلب ، أغلقى هذا الشئ .

– دعنا نسمع ولاتكن سوداوياً هكذا .

– بل طوى الشتاء الطويل ثوب الربيع السندسى ، الغيوم السوداء تلاحق رأسى ، تمطر فوقى كل ماهو هم ونكد من أخبار هذا الزمن العجيب ، هيه هيا هيا ناولينى السيجار والـ.....

الدم يغلى فى عروقى ، تنهض عارية ، يتشحنى الجنون ، أبحث عنها فى كل مكان ، تحت الفراش والخوان الخشبى ، وتحت الأبسطة ، تنقض على كعقبان لمح فريسته فى العراء :

- أوه سيانا أحبك حتى الجنون ، وقد أسكرتنى قُبلتك ، رضاب شفتيك ذائب فى دمائى سيانا ارحمينى أرجوكِ .

رجلاى ترتعشان ، قلقلة رأسه فى حجرى توقظه ، ينهض فزعاً من الموت ، يمسك بىّ قبل أن تنهار فوقى إرادتى ، أحاول التملص من قبضته ، أصرخ بصوت عالٍ أصابعى تنهش فى لحم جسدى وتدميه ، أتمَرَّغ فى تراب الأرضية الأسمنتية :

- سيانا ، سيانا ارحمينى بالله عليكِ إننى أتمزق وأموت .

برفق يأخذ رأسى من فوق عنقى ، يدفنها فى صدره الدامى، أسمع دقات قلبه تتمتم بالفاتحة من أجلى .

●●●

(٣)

فوق رأسينا الحذاء الحديدى والعريف مائير ، ينطق بخبث وقد لمح رأسى فى خبء صدره وذراعيه :

- هيه مادمتما قد تحابتا هكذا فلا أحسبن أن يداً سوف تكون أرحم من يد أحدكم على الآخر .

هببت مستغرباً غاية الاستغراب :

- ماذا تعنى تحديداً أيها العريف !.

- ليأخذ أحدكما عصاى هذى ، وليكن لصاحبه قاضياً وجلاداً فى آن واحد .

- أَجننت ؟! ، إفعلها بنا ان شئت ، أما أنا فلا وألف لا .

للمرة الألف يركلنى بمقدمة ركبته فى منطقة حساسة ، أنثنى متأوهاً حتى أكاد ألامس رأس الشيخ من فرط الألم ، يداه تلفان رأسى يضغط بحنان عليها وكأنه يسر لىّ قائلاً :

- مادام الموت بيد أحدنا فنحن بمنجاة منه .

خرقت رغبته وضغطة يده على يدى جدار الرفض فى أعماقى، يعيد الكرة مرة ومرات ، الاستسلام سهل ومغر ، والصمود معناه الموت ، فى النهاية استسلمت لرغبته ومنطقه الصامت ، أتناول

العصاة من يده بعينين تطقان شرراً تطفئهما ظلمة المكان، أسمع صوت ضحكته الماجنة ، وتراجعه إلى الوراء حتى باب الزنزانة المفتوح ، يتسلل عبره قبساً من الضوء الشاحب، يهتف بىّ زاعقاً :

- هيا ، هلم ماذا تنظر يابن الـ.....

ياللمسكينة أمى ، أنهال بالسوط اللاهب على ظهره العُريان ، يصرخ ، أتوجع ، فى اليوم التالى مباشرة يرفض أن يفعل بىّ نفس الشئ ، يسحبونه إلى أين ، ربما إلى المسلخ أو ليصعقوه ويحرقوه لا أدرى ، أقذف بالتفاحة الحمراء مكافأتى فى وجهه ، صوته الوقح يطاردنى بسماجته التى لاتطاق :

- أنت اليوم فى راحة تامة مادمت تسمع الكلام .

يتركنى للنار تأكلنى حسرة من أخمص قدمى وحتى أم رأسى:

- يالىّ من صغير خسيس .

أذهب إلى الجدار أُريد أن أشجه برأسى ، الدم يغلى مجدداً فى عروقى ، أنشب مخالبى فى عنقى ، ألفظ أنفاساً قذرة ومتقيحة كالجروح والدمامل المنتشرة فى كل أنحاء جسدى منذ أتيت إلى هذا المكان البغيض ، أصرخ كالأخرس :

- سيا ، سيا ، سيدنا الشيخ .

●●●

(٤)

كم من مرة أخذونا إلى مكان ناء لنقضى فيه حاجتنا ، ثم يعيدوننا إلى نفس المكان الموبوء أو غيره سيان عندى ، الشيخ ينزف دماً ، صوت أنفاسه الثقيلة تحف بمسمعى ، أهمس فى نفس قانطة : « إن لم يقتله العذاب فلسوف يقتله الربو».

أصمت ، لأول وهلة أتصور أننى نائم وأحلم :

- أظن أنهم لن يتركوه يرحل بهذه السهولة .

قبل أن أجيب ذلك الصوت الغريب أُدرك أن السؤال ينتظر مجيباً غيرى :

- لوكانوا كذلك حقاً كما تقول لعالجوه من ترسبات البارود فى جسده ، ولكن حدثنى عن نفسك أولاً ياأخى .

أجيب مردداً وكلى دهشة مع صوت خافت يصدر عن وجه ما :

- سالم الغضبان ، من حى جباليا بيافا العربية ، وأقطن قريباً من ساحل البحر ، هه ، يقولون أن الزمن قد توقف عن السير هناك منذ عشرات السنين ، وأنتَ ؟ .

أتجاهل رغبتى التى كانت تشتد شيئاً فشيئاً فى تناول المخدر، أتدانى زاحفاً بالقرب منهما ، أحس أن لسانيهما فى فمى :

- رعد من القدس القديمة ، من عائلة نسيبة المسلمة التى تتوارث المفتاح الخارجى لكنيسة القيامة أباً عن جد ، وذلك برضاء تام من اخواننا المسيحيين .

- أخى أُتُرانا فى معتقل غزة الرهيب ؟.

- لا ، فإننى قادم للتو من صرفند والرملة وبعدهما نقلونى إلى زنازين المخابرات فى غزة وهى لاشئ بالنسبة إلى هنا.

- يبدو أنك من المشاغبين .

- الحجر يثور لحبيبتى وابنة عمى روضة الغزوية .

- آه ، شهيدة نفى ترتسا بالرملة ، رحمها الله .

أسمعه ينتحب ، وكأنما يضمها إلى صدره فى شوق ووصال :

- لقد عاهدتها من وراء القضبان فى مثواها الأخير أن أظل ثائراً إلى الأبد ماداموا يقومون على مصائرنا مقام الآلهة .

- وبعد ؟.

- لفقوا للمسكينة تهمة الاعتداء على مستوطنتين فى القدس الشرقية ، ولم تكتف السلطات بحبسها ، بل داست البساطيرالعسكرية على منزل أبيها فى حى السجاعية وسوته بالأرض تماماً، ثم أعلنت أجهزة الإعلام نبأ إطلاق الرصاص عليها إثر محاولتها الهروب وقد كانت .....

أحسست بالدموع الساخنة تنفجر شلالاً من مسيل عيني ، شهقت قائلاً بصوت يتمزق ألماً :

- كانت ماذا ؟.

- كانت مصابة بشلل الأطفال فى ساقها الـ.....

سكت فجأة ، رسم علامة استفهام فوسفورية تركت وميضاً باهراً فى نفسى :

- مَنْ ؟!.

لذت بالصمت التام لحظات ، ثم قلت متلعثماً بعد تردد شديد :

- أأأ ، أنا .

أتانى صوته الغاضب عبر غيمة سوداء كانت تتذرنى بالويل والثبور وعظائم الأمور ، واسترقت أذني السمع لتمتمة هامسة جداً أتت من ناحية ما : «كن حذراً منه».

- مَنْ أنتَ ؟ ، وماحكايتك ؟.

- أرجوك اعفنى من هذا السؤال .

قال الآخر بحدة :

- ألا يمكنك التحدث بالعربية .

أحس بشبحيهما يفتشان عنى فى عتمة المكان ، ثم يستويان فوق رأسى ، ولو خطا أحدهما خطوة أخرى لتعثر فىّ وسقط على جسد متهالك ، قلت بعد برهة :

- سأحاول .

- تكلم مَنْ أنت ؟!.

- وماذا يعنيكما فى أمرى ، وكل ماأعرفه أنهم اعتقلونى منذ اسبوع أو شهر أو سنة لا أدرى .

قال الغضبان وهو يطوح برجله فى الفضاء وراء بصقة غليظة غطت وجهى :

– أتمزح أيها العميل الوقح .

– واللّه لا أعرف شيئاً ، ليتكما تجيبانى على نفس السؤال، مَنْ أنا حتى يكلفوا أنفسهم مشقة إحضارى من أقصى بقاع الأرض إلى هنا تحت الأرض .

– لو كان زعمك صادقاً فأنت ولابد قد تورطت فى شئ ما ضد السامية ، هنا تتم تسوية كل الحسابات ، هه أو يظنون أن أحداً قد تجرأ وحلم ضدهم !.

قال الآخر :

- أترى أنت ؟.

- أجل ، وفوق ماتتصوران .

قال رعد وقد خفت حدة ثورته وهو يجثو أمامى على الأرض، أحدق فيه ، أرى فى خيالى ملامح منهكة مذعورة :

- من أى بلد أنت؟.

- إننى شئ وجنسيتى شئ آخر .

قال سالم موجهاً حديثه إلى رعد كما فهمت :

- لن يتكلم وكذلك نحن .

خيم الصمت التام على المكان ، الشيخ الطيب بين يدي يختنق، أتلمس أصابعه المهشمة ، ثم أملس بطرف أنملى على ملامح وجهه استكشف هيئته ، ماأكثر تعاريج الزمن فوق وجهه ، تتمزق نياط قلبى دفعة واحدة ، أتساءل إلى أيهما أو كليهما معاً :

- ألا يرحمون شيبة هذا الشيخ المسن ؟!.

يضحكان طويلاً ضحكة المندهش ، يقولان معاً فى صوت واحد:

- هه الشيخ !! ، هيه يالها من أيدٍ بيضاء وقلوب سوداء .

- ألا تسمعان دقات قلبه وهى تخفت شيئاً فشيئاً ، والرطوبة التى تضرب فى نخاعه رغم البرش البلاستيكى تحته ، إنه لامحالة ميت ويخدعنا بأنفاسه .

- هه عندما يذوب الجبل الكبير تبقى الطُلُول .

أتمتم يائساً :

- يبدو أننا جميعاً قد ركبنا فى لحظة واحدة سفينة تغرق فى قاع المحيط ، فيالـه من مصير مشئوم .

قال رعد ساخراً :

- اللّه ، يالـه مـن وصـف شـاعرى لمأسـاة إنسـان يحتضـر بـين يديـك ، لِنُسـم ملهاتـك مثـلاً ملهـاة الصبـى العجـوز ، أو أنشـودة الهلكـى.

- كلنا هالكون فى هالكون الكبير .

يضحـكان ، يسـتطرد الآخـر الـذى نطـق العبـارة الأخيـرة بلهجـة صـرف شـامية :

- ألست شاعراً مثلك ؟.

قلت كاظماً الغيظ فى صدرى :

- لقد صدقت ، فقد كنت شاعراً بالفعل .

- هه كنت ، وهل مات الشاعر ؟! .

- نعـم تلفـت حولـه منـذ صبـاه فوجـد نفسـه فـى دائـرة سـوداء، خـارج الحـدود التـى عـرف بهـا زمانـه ومكانـه ، هـه يقولـون عليـه أنـه الشـاعر الأسـود ، الـذى يسـكن جثـة بيضـاء فـى يخـت أسـطورى ضـال يمخـر عبـاب البحـار .

قال سالم بصوت خفت حدته هذه المرة إلى حد ما :

- ولماذا لم تبرح هذه الدائرة الكئيبة ؟!.

قلت وزبد الخمر يذهب جفاءً فى حلقى :

- لقد فُرضت علىّ مثلما فُرض عليك جسدك ، وجهك، لونك ووطنك وأشياء أخرى كثيرة لايمكنك أن تتخلى عنها أو تتحلى بغيرها ، هيه وماذنبى أن ماتت قضيتى على جدران القلوب.

خيم الصمت من جديد على المكان ، صوت شخيرهما يأتى مختلجاً بصوت الدماء وهى تغلى فى عروقى ، أتشنج فى محلى، أتماسك على غير عادتى ، أصرخ فى سويداء نفسى : « سيانا مَنْ أنتِ بحق السماء ؟!!» .

رأس الشيخ هامدة فى حجرى ، ألثم جبينه بشفتي الجافتين، أطرح رأسى إلى الوراء ، تقبضنى إغفاءة ، ثم.....

●●●

(٥)

أفقت من غفوتى على يدي العريف مائير تهزانى بقسوة مقيتة، خلفه وقف الضابط المناوب ينهرنى بشدة كى أهب واقفاً، نهضت ذاهلاً ، اقتادانى فى الحال إلى الدهليز الذى رحنا نجتازه كالأشباح، على الجانبين منا كانت الزنازين تفوح منها رائحة كريهة لأنفاس ميتة، تخنقنى ، أسمع أصواتاً بشعة تئن من شدة الألم كانت تتسلل عبر فتحات ضيقة للتهوية ، تعتصر قلبى، يزداد اختناقى ووجيفى، تخليا عن قيادى فجأة ، دفعانى إلى حلقة الضوء الباهرة ، كدت أسقط على الأرض ، ساقاى لاتقويان على حملى ، تشبثت بيدي فى آخر لحظة بأطراف المكتب الخشبى لاهثاً ومضطرباً جداً ، لمحت شبحه الجاثم وراء غلالة كثيفة من الدخان ، صرخ فىّ بصوت جهير قبيح ، رصّ فى أذني أسماء غريبة لم أسمع بها من قبل ، ثم نهرنى متسائلاً فى حدة ربما للمرة العاشرة :

- ماعلاقتك بهؤلاء ؟.

يدا مائير الغليظتين كيدى شمشون الجبار تلويان عنقى ليا قاتلاً ، يدير رأسى رغماً عنى ناحية زاوية ما فى غرفة التحقيق الرهيبة ، وقعت عيناي على جهاز «البرجيكتور» كان يعرض صوراً لأشخاص ما على شاشة بيضاء كبيرة ، لم أحر جواباً فى البداية،

انتظرت برهة كنت قد تخلصت فيها من يدي مائي ، ثم التفت نحو مصدر صوت السائل قائلاً ، ومؤكدا فى الوقت ذاته بهزات نفى من رأسى يمنة ويُسرَة :

- لا ، لا، لاأعرف أحداً منهم على الإطلاق .

- تعاون معنا ، ولسوف ترى أثراً طيباً بعد ذلك .

- قلت لاأعرفهم .

انهالت على ظهرى السياط اللاهبة من كل صوب ، مع صوت فظ لرجل آخر دخل فجأة إلى الساحة التى تجرى فيها الملهاة الكبرى ، رشقت عيناي فى وجهه الكالح الدميم وهو يقول مؤكداً بسبابة يده اليسرى :

- رجالنا يؤكدون بما لايقبل معه الشك أنك قد قابلت بعضهم فى شتوتجارت وأمستردام وصوفيا و.....

قلت محتداً :

- كذب وتلفيق ، إننى لم أر ألمانيا فى حياتى !!.

للمرة الألف تنهال سياط الغضب الباطشة على ظهرى العُريان، أوجع منها تلك الشتائم ، أغمغم فى سريرتى : « أمى أبى ، ماذنبكما ، تهانان وتُسبان بسببى هكذا ، وقد توسدتما الثرى وطواكما النسيان منذ زمن بعيد !» .

أجتر بصعوبة ذكريات ممضة وأليمة ، أتأزم ، أدعك فروة رأسى وجبينى بيد مرتعشة ، أغور فى أعماقى ، أنسلخ عن عالمى الكئيب شيئاً فشيئاً ، أصبح مخلوقاً آخر ، ألمح عصفور الدورى وقد انتفخ الطوق الأسود تحت عنقه ، يزقزق ويتواثب بين أغصان شجرة الليمون الكبيرة ، ويمامة تنقر فى جذع شجرة الباو بجانبها شحرور يغرد ، وقُمَرى راح يَهْدِل عند الكرمة الصغيرة ، أشد المصيدة حتى آخرها ، أقذف بالحجر تلو الحجر ناحية الأغصان المتشابكة ، يجيبنى الفشل ، تنتبه إلى يدى المخضبة بدماء كُرَكىٍّ صغير سقط من فوق سِدْرَة عالية ، فى يدى الأخرى كانت أقحوانة تلم أوراقها البيض على قلبها الأصفر ، تنطفئ، تغدو بلارائحة ، تنهرنى بوجهها السمح المطل من وراء نافذة مقدسية زاهية الألوان ، تتقاطر بالدموع فى مسمعي كلماتها :

- ماذنب هذه الطيور البريئة ، إيِّاك أن تقطف زهر البنفسج والسذاب من الأحواض ثانية .....

يقطع صوتها المنفعل صوته الهادئ الرصين الآتى من وراء ظهرى مباشرة ، كان يدخن الأرجيلة تحت خميلة الياسمين ، أسمع كركرتها تختلج بصوت ضحكة وقورة حانية :

- خلِ أحجارك للحيوانات القبيحة فقط .

الشوارع ، الأحياء ، البساتين ، المدن تتحول فجأة إلى أفخاخ ومتاريس ، أشجار الكرم والموالح والزيتون على جانبى الطريق

تتعانق بالنيران ، تتوارى البيوت ذوات الأحواش والمساقى البديعة الألوان ، والمآذن العالية الملامسة قبة السماء ، وأبراج الكنائس المتهاوية الأجراس ، وراء ألسنة اللهب الممتدة على مرمى البصر ، رباه الجنة تحترق !!؟.

أستفيق على ضربات يئست من جسدى ، ينبرى لىّ بصورة وجهه البشعة وهو يصرخ ، أراه لأول مرة من غير غلالة الدخان الكثيفة التى كانت تحيط به دائماً ، كان قبيحاً كالقرد :

- أهذا لك ؟ .

أدقق النظر فيها بإعياء شديد ، أهز رأسى بالإيجاب .

- أجل هذا يختى .

يقدم إلىَّ صورة أخرى تحترق ، أصرخ يائساً :

- لماذا فعلتم ذلك أيها المجانين ؟! .

من فوق سطحه الدائرى كنت أرى الشمس وهى تتكسر على حافة الأفق الدامى ، عند صخرة أفروديت ، كانت تخرج لىّ من زبد البحر فى ملابسها الشفيفة تعانقنى ، ربة الجمال تمسح وجهى وجبينى بالقبلات الحانية ، تطفئ التظاء النار فى قلبى الشغوف ، تهمس لىّ :

- رفقاً بنفسك أيها الشريد فى عالم التيه .

رباه ، حرقوا سفينة نوح ، عالمى ، يقطع حبل شرودى سيلاً من الشتائم الغليظة ، يرفع وجهى من أسفل ذقنى بطرف سبابته، ويده الأخرى تضغط فى موضع العفة ضغطات عبثية لاتحتمل ، أتلقى نظراته الشيطانية المتسائلة باندهاش شديد :

- هناك مبالغ ضخمة قمت بسحبها ، وبتحويل مبالغ أخرى كبيرة من بنوك نيويورك إلى العديد من بنوك آسيا وأوربا ، فلِمَ هذه التصرفات المريبة ؟!.

تكورت وجنتاى من فرط الغضب ، قلت وقد نفد صبرى تماماً :

- التجارة تعنى حاجتى الدائمة إلى السيولة ، والسوق مجنونة نتحرك بها شرقاً وغرباً لئلا نسقط من فوق أنفسنا ، ثم ماشأنكم بكل هذا ؟! ، سوف تحتج دولتى لديكم بشدة لوعلمت بالأمر ، وربما تقطع علاقاتها معكم فى التو واللحظة .

- هاهاها ، هاهاها ، هاهاها.....

دوت قهقهات جنونية من حولى وجلجلت فى أنحاء المكان ، انسل صوتاً حانقاً إلى أذني من بين ضحكاتهم الهستيرية التى كفكفوها بأعين دامعة :

- أكاد أجن لم نُثبت أى شئ عليه حتى الآن .

أسر إليهم بذلك ، صمت برهة ثم قال زاجراً إياىّ :

- تعال أيها الإرهابى الكلب ووقع لىّ هنا .

- وعلام سأوقع ؟!!.

يد مائير تعرف طريقها جيداً إلى مؤخرة رأسى ، أغيب عن الوعى ، تتعلق كلماته بذاكرتى لحظة ثم يتهاوى صداها مشتعلاً كالجمر فى أعماقى :

- على الهواء يابن الفاجرة الـ.....

ثم يتهاوى منى القلب والجسد ، أنقبض ، امتثل لأوامرهم ونظراتهم الكريهة صاغراً ، أستدير منصرقاً ككلب معاق ، وحانياً رأسى وفؤادى بين يدى الحارس الجلف «مائير» .

راح يسوقنى بلسانه اللاذع عبر الممرات المظلمة ، ثم نزل بى فى متاهة خافتة الإضاءة تحت الأرض ، أحسب نفسى فى قاع الهاوية ، تصطك بأذني أصوات رهيبة تصرخ من الألم بين يدي زبانية جهنم الحمراء ، يزداد خوفى وانقباضى ، هنا المجهول يكتب التاريخ السرى للبشرية ، وهاقد أصبحت جزءً من هذا التاريخ الأسود الملوث بالدماء ، أزعجنى ذلك الخاطر البشع ، أتساءل إلى نفسى بهلع وكأن ملك الموت يطرق بابى : «تُراهم متى سيسدلون الستار الأبدى ، الآن أم غداً ، هنا أم أين ؟» .

رحت أتصبب عرقاً كنت أبدو كالغريق الذى ينتظر يائساً قشة النجاة أى قشة ! .

أمام الرّتاج الخشبى الكبير وقف يعالج بعض المزاليج التى علاها الصدأ ، أفقت من شرودى على يديه تدفعاننى قسراً إلى الداخل ، أشعل ضوءً خافتاً كشف عن وجه المكان القذر ، بعينين مغمضتين رحت أخمن ماأسرته صفحة الغيب ، تغمرنى الهواجس المرعبة ، ولم يخب ظنى كثيراً لسوء الحظ ، الهشّامة الحديدية راحت تفرك يدى المبسوطة على شئ حاد كالمسن المعدنى ، تفتك بأصابعى أنملة بعد أنملة ، أصرخ صراخاً متحشرجاً لايطاق ، أرعبت به معذبى الذى قال وهو يعقد أساريره بصوت شامت :

- إن لم تنطق ، فلسوف نأخذ غداً إصبعك الآخر ، وهكذا إلى أن تنطق .

- ولنقل أن هذه هى بداية الموتات التسع [٢] .

قالها مائير وهو يعيدنى ميتاً إلى دمنة الأحياء ، تطوينى الآهات والدموع فى مسارب المستحيل ، كنت أبكى بلوعة ومرار وأهذى بصوت مسموع :

- حرقوا بدر البحار وهى راسية فى وداعة الحملان .

- المجرمون ، يظنون الدنيا بأسرها وكراً للشياطين التى تحاربهم .

قال رعد تلك الجملة وهو يزحف بجسده على الأرض بطريقة دودية ، فرد سالماً بصوت ثائر غضبان :

- يحرقون كل شئ حتى تغيب شمس الأمل إلى الأبد .

أسمع الحوار الدائر بينهما ، كان يخفت شيئاً فشيئاً فى أذني:

- إنهم يعمدون إلى حرقنا نحن أيضاً ولكن بلاأفران ، وكم يشتد جنونهم عندما يجدون أننا قد كتبنا وصايانا على جلودنا المحروقة ، هه إنها ضريبة الدم ياصاح .

- سوف يلهثون كثيراً وراء الغروب المستحيل ، يتناسون أن الشمس تغرب فى أعيننا فقط ، ولكنها تظل باقية دائماً أبداً لتنير الظلام من علياء الوجود .

أتمتم فى نفسى ، لايسمعاننى : « هيهات أن تعوض الكلمات نفساً كليمة وفؤاداً يتنزى ألماً» .

تسكننى رعدة شديدة ، أشعر بدوار سخيف ، ألفظ أنفاسى لفظاً مريراً ، أصرخ بصوت عال مخنوق ، النظرات الحيرى تترأرأ فى المُقَل ، صوت الأنفاس الرتيبة وهى تعلو وتهبط فى الصدور الملتهبة كلها أشياء لاحقتنى حتى عالمى الغيبوبى .

●●●

(٦)

كانت صورته وهو يذرى الغلال تومض فى مخيلتى بين الفينة والفينة، الشمس تسيل عرقاً على جبينه المقطب السمراوى، زفراته الغاضبة راحت تفرى وجه السماء بشظاياها ، تسيل عبراتى رغماً عنى ، أشعر بقلق شديد ، الوجوه تغيرت ، الألسن تبدلت ، طوال الليل أسترق السمع إليهما وهما يتناجيان ، كانت واقفة قبالته تربت على كتفه ، وبيدها الأخرى تمسح على ترجيلة شعره السبط ، خلفهما من النافذى الزجاجية بدا البدر محجوباً بغلالة سحابية ممزعة ، جعلت تجليه تارة وتخفيه تارة أخرى ، أصار الليل الشجر أشباحاً تتراقص برؤوسها نظراتى الذاهبة والآيبة فى قلق ، يأتى صوت حفيفها المرعب مختلطاً بصوته فى أذنى :

- لن أبيع ذرة واحدة من الأرض .
- تذكر طفلنا ، لم يبق غيرنا فى القرية .
- إن الأشجار تموت واقفة ، لن أجبن ، لن أكون حوتاً يائساً مادمت واقفاً على أرض صلبة .

رأيت دمعة انهملت من عينيها الفيروزيتين ، راح يقبلها بقبلة حانية ، يتآسيان ، يغيبان عن عيني ، أتشنج ، أفتش عنهما فى كل مكان بلاجدوى ، لم يكن فى استطاعتى البحث تحت الجدران المنهارة ، تحتقن الدماء فى وجنتى ، أصرخ ، أنشب أصابعى المهشمة فى لحم جسدى الذى أصبح ضامراً ، تراودنى أحلام الفتاة الساقطة ، أحس به ينهض متحاملاً على آلامه ، يضمنى برفق إلى صدره ، لايفصلنى عن قلبه سوى عظام صدره الناتئة فى جسده الناحل ، تخضلت لحيتى الكثة بدمائه ، رغم السحابة القاتمة التى غمرتنى إلا أننى لست بناسٍ زهرة البنفسج وهى تذبل وتموت أمام عيني على راحة يدى ، أشعر بالأسى يهيض قلبى ، أسحقها تحت قدمى ، يتسلل إلى سمعى صوت سيانا المخادع الرخيم :

- أوَ تسحق حبى تحت قدميك ، أقسم أننى سوف أملأ غرفتنا بأزهار الكولومبين أيها الناكر للجميل .

أنطق شارداً فى المجهول :

- إن حياتها كلها ألم برؤه فى انطفائه .

تفزعنى الذكرى ، ضغطة أسنانى على شفتى السفلى تدميها بشدة ، أجيل السمع فى حنايای ، صوت ما يهتف بىّ صارخاً :

- لن أموت على كف يدك ، لن تقبضنى أصابعك الفتاكة ، لن يسحقنى يأسك ، اخلع عينيك واتبعنى .

أدفع يده بعيداً عن روحى فى آخر لحظة ، يحدجنى بنظرة نارية تشعل أغوارى السحيقة ، أسمعه مرتعباً :

- مادمت تأبانى فلِمَ استدعيتنى يا.....

أقاطعه مهرولاً إلى أقصى مدى ممكن ، أعانق نسمة أى نسمة فى الطريق ، أهرب ليس حباً فى الحياة ، ليس كراهية للموت ، أتمتم لاهثاً :

- تجاهلت نداء الغارق طويلاً وهأنتذا تأتى بلاموعد .

تهدأ سريرتى شيئاً فشيئاً كما يهدأ الشجر على الربُى بعد عاصفة مدمرة ، أستعيد سكينتى ، أنتبه إلى صوت شحرور راح يحدث صخباً مزعجاً فى الخارج وكأنما قد فقد نای الطرب ، أصيخ السمع ، أجيل نظراتى المتلئة بالفضول فى أنحاء المكان ، أنطق بنبرة هادئة لاتخلو من حشرجة :

- يبدو أننا فوق الأرض لاتحتها كما كنت أظن من قبل .

ينهض رعد من غفوة المقيل كما قال لنا ساخراً قبل أن يطرح جسده المكدود على برشه البلاستيكى ويأخذه النوم :

- وما الفرق إذا كنا لانعرف أين نحن ، وهل الدنيا فى الخارج ليل أم نهار !؟.

يتملكه الشرود للحظة كما خمنت، أسمعه وهو يطلق تنهيدة عميقة من صدره المشحون ، ثم وهو يردف قائلاً بنبرة ساخرة أدنت قطاف الزهد من شفتي :

- هه الحياة ، ما الحياة وكلها تنطفئ بإغماضة عين !.

- ليت العالم كله كان معنا الآن .

يتشحنا الصمت ، تقطعه صلصلة الأغلال فى أقدامنا ونحن ننهض فى ذعر ؛ كرد فعل مفاجئ لما يتربص بنا فى تلك اللحظة الكئيبة ، يعلو الجهام جبينى ، تتتابنى رعدة داخلية شديدة ، يرتج لها على الأثر جسدى ، أسمع رعد يسألنى بصوت حاول أن يتحكم فى نبرته إلى حد ما :

- ماذا يرهبك من هذه الضجة المثارة فى الخارج ، أَوَ لم تعرفهم بعد ؟!.

- قلبى مقبوض بشدة هذه المرة .

تلتقى أعيننا صدفة بعينين قبحتين راحتا تطلان علينا من وراء الكوة التى انفرجت بغتة فى أعلى باب الزنزانة الحديدى ، نسمع أصواتاً مرعبة تنبح وتدمدم فى الخارج ، انشق الباب عن رجال طوال عراض كالأشباح المخيفة ، ولجوا فى لمح البصر إلى الداخل، خلفهم من العمق الخارجى انسل بصيصاً من الضوء

الخافت ، نكاد لانميز أنفسنا فى الزحام ، رحنا نتراص وراء أسمائنا التى ينادوننا بها ، أخذوا يحدقون فينا بشدة ، اقترب بعضهم منه، نزعوا رأسى من حمى صدره الحانى ، راحوا يجذبونه بهمجية ، تعوقهم قبضة يدى المتشبثة بأطراف ملابسه البالية ، ألمح بسرعة خاطفة على هدى الضوء الشاحب ، شبح رعد وهو يدفن وجهه بين كفيه صارخاً فى حسرة ولوعة بالغتين :

- أوه روضة ، ياللمأساة التى لاتنتهى !.

لست أدرى قلباً أى قلب فى العالم يمكنه تحمل تلك الخفقة الشديدة التى زلزلتنى ، أتشنج كالمصروع ، أعاود الكرة من جديد، أحاول التشبث به بكلتا يدي المهشمتين ، أشعر بالأرض تسحب من تحت قدمي ، الكلاب المتوحشة التفت حول جسدى الذى اختل توازنه بعد شد وجذب دام تنهشه ، أصرخ صرخة الموت المحتم ، وجه مائير الكالح يعوى ويبصق فى وجهى :

- داهية تأخذك أنت الآخر .

اختفوا به ، إلى أين ؟! ، لا أحد يدرى ، نظراتنا الراكضة تتبدد خلفهم فى الظلام الدامس ، تصطدم بالباب الذى صفق بشدة فى وجوهنا ، لفنا الذهول بوشاحه الأسود ، ارتميت على الأرض ، تملكنى النشيج الحاد ، فجأة استفقت متذكراً أمراً ما ، شرعت أستحضر اللحظات القليلة التى انصرمت ، يده فى قبضة

يدى ، كانوا يشدونه وكنت أقاومهم باستماتة ، قبل أن أعلن فشلى دس شيئاً ما فى يدى ، لا أجده ، أهب كالملدوغ متناسياً الكلاب والدماء المتفجرة من شراييني ، أتحول إلى آلة تحرث فى الأرض بلاوعى ، الظلام الحالك ، والأقدام الكثيرة والكلاب التى كانت هنا كلها أشياء جعلت من مهمتى مستحيلة بكل ماتحمله الكلمة من معنى ، كنت أبدو كمن يحرث فى البحر بأصابعه ، أصرخ منهاراً بصوت رجرج صمت الوجود السرمدى :

- اللعنة على مَنْ يصنعون الظلام .

فجأة انفرجت أساريرى ، أتنهد مستريحاً ، قلبى بين ضلوعى يرقص طرباً ، أتلمسها بإصبعى الإبهام والسبابة ، كانت رقيقة للغاية ، رحت أدسها برفق وحذر شديدين فى جيب الأفرول ، تساءلت فى نفسى بلهفة اليقظان الغارق فى بحر الأحلام ، كنت ماأزال قابضاً عليها فى جيب سترة السجن الزرقاء :

- متى وكيف وأين ؟!.

انتشلنى النوم من بين ضجيج الهواجس والرغبة المعتملة بشدة فى نفسى ، ولم تأتنى سيانا ككل لحظة وليلة ، كانت اللعينة قد ذهبت بلارجعة .

●●●

(٧)

استيقظت على صوت كوة الباب وهى تُفتح ، فى أثرها عَبَرَ الظلمة الكثيفة إلى أسماعنا صوت أجش يقول وهو يدير المفتاح فى فرجة الباب :

- الفورة .

قال سالم وهو يتنفس الصعداء :

- هيه أخيراً .

سألته متلهفاً :

- أشم رائحة النور فى الموضوع .

- نعم سوف نستروح النسيم العليل لدقائق معدودة بعد أشهر الضنا التى حييناها أو قل متناها فى هذه المقبرة الموبوءة .

أنهض محبوراً رغم الأغلال التى تأسر حركتى وأمراض الدنيا التى حلت بجسدى إلا أننى تناسيت كل هذا ، رحت أسبقهما إلى الخارج ، كنت أتحسس جيبى فى لهفة العاشق المشتاق ، كانت مدسوسة بعناية فى ثنايا صديرى الأفرول الأزرق الذى تعفن على جسدى ، أهمس فى نفسى : «سوف أعبر أسوار المستحيل من أَجلِكِ ولو كلفنى ذلك عمرى» ، .

مال رعد آنذاك برأسه على أذنى وهامسنى بحذر شديد :

- قد يقتلونك بسبب هذه الشارة التى فى جيبك .

يد ما بضة ناعمة سحبتنى بغتة من بينهما ، ابتعدت عن زميلي مضطرباً وأسيراً لهاجس ما شل عقلى وتفكيرى تماماً : «هذه الحسناء لقد سمعته بلاريب ، قد يأخذون الشارة والسر إلى الأبد ، السر !!» .

انقبض قلبى ، كدت أتعثر فى ظلام الردهة الطويلة الصاعدة لأعلى ، فى نهايتها كان قبساً وئيداً من ضوء النهار البديع يكلل هامتها ، فكرت فى الهروب ، تراجعت ، إلتفتُ ناحية السجانة الفاتنة التى تسير معى كتفاً لكتف متسائلاً وقد بدت لى ّترتدى تنورة كُحلية اللون قصيرة للغاية :

- إلى أين ؟!.

قالت وقد زانت وجهها الأشقر المتنمر ابتسامة ما :

- لقد أعدمناك ولاحاجة لنا بك بعد الآن .

ضحكت بصوت يبدى دهشتى :

- أيعدمون الأموات هنا حتى يصيرون أحياءً .

مضت منصرفة ولم تعقب ، ولجتُ بمفردى عبر الباب الحديدى إلى الخارج ، غشانى ضوء النهار الساطع ، لأول مرة منذ زمن بعيد أرى الحياة ثانية ، أقابلها بعيني الأعشى ، أعانقها، استنشق عبيرها

الفواح ، أشم رائحة النرجس والفل والريحان والليمون ، رائحة ذكرتنى بالليمون اليافاوى الشهير وموالح الشام الشهية ، من بين أهداب مرتعشة رحت أتلمس الطريق من حولى، أدركت أننى فى حديقة غناء وحيداً بين العنادل والشحارير التى راحت تتحلق حول رأسى ، أشعة الشمس المتسللة من بين اشتباكات الأغصان المُشرعة فى مهب الريح ، تلسع إهابى الذى صار أكثر بياضاً عن ذى قبل: « أسرع حتى لايضيع منك الوقت هباءً» ، صوت ما فى داخلى أمرنى بذلك ، رحت ألبى نداءه على الفور ، أتلمس الصديرى ، أتوارى متلهفاً تحت صفصافة عالية، أسحبها برفق من وفاضى ، أبسطها متعجلاً أمام عينى شبه المقفلتين ، أتطلع شوقاً إلى صفحتها الخضراء المختلطة برائحة عرقه الزكية، أملى فيها النظر ، وأرهف سمعى إلى أقصى حد أطيقه :

- رحيل عبدالهادى ، إتحاد طلاب مدرسة جباليا الإعدادية.

تشع عيناي ببريق غريب ، لا أصدق نفسى البتة :

- ماذا !!؟ .

أضحك طويلاً :

- يالى من ساذج غبى .

آخذ نفساً عميقاً ، تلوح على وجهى ابتسامة رائقة ، أجيل نظرات خضراء من عينين غير عيني فى العالم من حولى ، أصرخ مغتبطاً ، أكاد أقفز وأتواثب كطفل صغير تفر من أمامه الحيوانات

القبيحة ، صورته وهو يحتوينى فى صدره المتخشب تلوح أمام ناظرى فى الأفق البعيد ، ربما لاتكون هيئته هكذا ، ولكن من المؤكد أنها روحه السامية : « هيه أيها الشيخ الصغير، تراه أين هو الآن ؟!»، أهمس بلسان أبى فى فمى المفتوح عن آخره :

- إن الخيرين رسائل ، سرعان ماتفض محتوياتها ، فى عقول تحترق شوقاً إلى الخلاص .

السجانة الرائعة الجمال تتقدم نحوى بغنج ودلال ، أنوثة طاغية ملفوفة فى قوام أفعوانى ، تقفز نحوى وكأنها تضبطنى متلبساً :

- ماهذه ؟.

- وصفة يشفى بها الأعمى .

- إذن أعطينيها حتى أرى ماتراه الآن .

- ليست لأمثالك ، فقد تموتين من عينيك الرائعتين .

ضحكت ضحكة عالية رنانة ، وقالت هى تسحبنى برقة من طرف معصمى إلى اتجاه ما بعينه :

- هيا أيها الفيلسوف ، زيارة .

- زيارة !!؟.

تحت ظلال شجرة الأيكاليبتوس الباسقة كان يولينى ظهره ، عند قمته العالية يستوى الشعر الأشقر مثل سبيكة ذهبية لامعة، هسيس أوراق الشجر المضغوط تحت قدمي لحظة تقدمى منه استرعت انتباهه ، أسفر ثغره فى الحال عن ابتسامة ناعمة ، خف إلىَّ هاشاً باشاً ، ثم قال بلغتى الانجليزية المكتسبة التى كدت أنساها فى الفترة القليلة الماضية :

- أرجو أن تكون بخير ياسيدى ومتفهماً لموقفنا .

أخذت استجمع الماضى على أطراف لسانى الذى استعاد ذاكرته تماماً :

- حسناً ماذا تريد ؟.

- أنا هنا من أجلك .

- هل أنت مندوب الصليب الأحمر الدولى ؟.

- لا ، إننى هنا كى أقدم احتجاجاً سرياً شديد اللهجة على ماأصاب أحد رعايانا الأبرياء .

- ولماذا السرية ؟!.

قال وقد علق حاجبه الأيمن فى سقف رأسه دهشة :

- العلاقات ياسيدى .

- لقد دمروا بدر البحار وصاحبها .

- أعرف ذلك ، سوف نتناقش فى أمر تعويضك .....

قلت مقاطعًا إيَّاه بإشارة من يدى :

- سيدى وفر عليك كل هذه المشقة ، ولنعش جميعاً أو لنمت جميعاً .

حدق الرجل فى وجهى برهة بعينين متكورتين ذاهلتين ، ثم قال وهو ينظر إلى السجانة التى بدت مندهشة هى الأخرى :

- آستير مَنْ هذا ؟!!.

جثوت على ركبتي ، غرست كلتا يدي المهشمتين حتى آخرهما فى الأرض الموحلة ، سحبتهما إلى وجهى ، أمسحهما فيه ، آخذ نفساً عميقاً، أنهض شيئاً فشيئاً ، وقد لاحت على وجهى ابتسامة واثقة، لم تُخفها البتة معالمى الطينية .

« الرحيل إلى الزمن الأخضر»

«قصة قصيرة لم تنته بعد»

---

(١) قردان عالباب : الصحون أمام الباب «بالعبرية»

(٢) هكذا كان يعذبون الأشخاص الذين كانوا يخالفون بعض النظم السائدة فى بلاد فارس القديمة بقتله بالبطئ وعلى مراحل تسع .